٤ - الغزالى والسياسة

عرفنا أن عصر الغزالى كان عصرًا مليئًا بالشيع المختلفة . . والمذاهب المتنافرة والصراع السياسى بين العباسيين والشيعة . . بجانب ما امتاز به هذا العصر من مناقشات ومجادلات فى شئون الفكر والفلسفة والدين . .

وعرفنا أن الغزالى كان قريبًا من الوزير نظام الملك الذى كان معجبًا بالغزالى . . والذى كان سببًا فى أن يعمل بالتدريس فى المدرسة النظامية . . فكان من الطبيعى أن يكون . . وهو القريب إلى الوزير نظام الملك أحد وزراء الملوك السلاجقة . . فهنا لا يكون غريبًا أن يهتم بأمور السياسة . . حتى إننا رأينا أن نفسية الإمام الغزالى قد تأثرت بشكل ملحوظ عندما قتل هذا الوزير . . كما أنه ألف كتابه «المستظهرى» الذى يرد فيه على الباطنية بأوامر الخليفة العباسى . . ومعنى هذا أنه كان يقوم بدور سياسى فى هذه الفترة . . عندما يكشف النقاب عن ضلال هؤلاء الناس . . وبعدهم عن الشريعة الإسلامية . . قد كان الخليفة العباسى غاضبًا عليهم . . وغير راضٍ عن أفكارهم وتصرفاتهم . . وما يقومون به من شغب واضطراب فى أنحاء البلاد . .

إن الغزالى يرى أن هناك علاقة أكيدة بين السياسة والدين لا انفصال بينهما . . فالإسلام دين ودنيا . . حياة وآخرة . . يرسم

سلوك الإنسان تجاه خالقه . . وتجاه نفسه . . وتجاه المجتمع، لأن الإسلام يحدد عن طريق العبادات العلاقة بين الإنسان وخالقه . . ويحدد عن طريق الفقة العلاقة بين الإنسان وخالقه . . وبين الإنسان والمجتمع . . فقد حدد نظام المواريث . . والعلاقة الزوجية . . والطلاق وحقوق كل إنسان تجاه الآخر بصورة رائعة على ضوء كتاب الله وسنة رسوله . . ومن هنا فلا انفصال بين الدين والدنيا . . بين الدين والسياسة . . وهذه الفلسفة السياسية يرسمها فى كتابه «فاتحة العلوم»:

«إن مقاصد الخلق مجموعة فى الدين والدنيا . . ولا نظام للدين إلا بنظام الدنيا . . فإن الدنيا مزرعة الآخرة . . وهى الآلة الموصلة إلى الله تعالى لمن اتخذها آلة وممرًا . . ولم يتخذها وطنًا ومستقرًا . . وليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين . وأعمالهم وصناعتهم تنحصر فى ثلاثة أقسام:

أحدها أصول لا قوام للعالم دونها وهى أربعة:

الزراعة وهى للمطعم . . والحياكة وهى للملبس . . والبناء وهو للمسكن . . والسياسة وهى للتأليف والاجتماع والتعاون على أسباب المعيشة وضبطها . .

القسم الثانى : ما هى مهيأة لكل واحدة من هذه الصناعات وخادمة لها كالحدادة فإنها تخدم الزراعة . . وجملة من الصناعات بأعداد آلاتها . . كالحلاجة والغزل فإنها تخدم الحياكة بأعداد محلها . .

القسم الثالث: ما هى مزينة للأصول مرتبة لها ، كالطحن والخبز للزرعة وكالقصارة والخياطة للحياكة ».

والسياسة لها أربع مراتب فى نظر الغزالى..

« الأولى: وهى العليا .. سياسة الأنبياء وحكمهم على الخاصة والعامة جميعًا فى ظاهرهم وباطنهم..

الثانية : سياسة الخلفاء والملوك والسلاطين وحكمهم على الخاصة والعامة جميعًا لكن على ظاهرهم لا على باطنهم..

والثالثة : سياسة العلماء باللّه وبدينه الذين هم ورثة الأنبياء .. وحكمهم على باطن الخاصة فقط .. ولا يرتفع العامة إلى الاستفادة منهم .. ولا تنتهى قوتهم إلى التصرف فى ظاهرهم بالإلزام والمنع..

والرابعة : الوعاظ وحكمهم على بواطن العامة فقط .. وأشرف هذه المقامات بعد النبوة إفادة العلم .. وتهذيب نفوس الناس على الأخلاق المذمومة المهلكة .. وإرشادهم إلى الأخلاق المحمودة المسعدة.. وهو المراد بالتعليم..»

ومن هذا النص يتضح ربط الأخلاق بالسياسة فى نظر الإمام الغزالى ..

وهو يرى أيضًا أن الشريعة الإسلامية قد أوجدت الحلول للمشاكل التى تواجه الإنسان فى حياته .. فهو يقول فى كتابه «فاتحة العلوم»:

« فاعلم أن اللّه - تعالى - أخرج آدم من التراب . . وأخرج ذريته من سلالة من ماء دافق . . وأخرجهم من الأصلاب إلى الأرحام . . ومنها إلى الدنيا ثم إلى القبر . . ثم إلى الجنة أو إلى النار . . فهذا مبدأ هام . . وهذه غايتهم . . وهذه منازلهم . . وخلق الدنيا زاد للميعاد . . ليتناولوا منها ما يصلح للتردد . . فلو تناولوا منها قدر الزاد بالعدل . . لانقطعت الخصومات . . وتعطل الفقهاء، ولكنهم تناولوها بالشهوات . . وضاقت أعيان الأموال والأنفس عن الوفاء بجميع الشهوات . . فتولد منها الخصومات . . فمست الحاجة إلى تمهيد فى بيان حدود الاختصاصات بالمنكوحات والمقطوعات وسائر المطلوبات الدنيوية . . وهو العلم الذى يتولى الفقيه بيانه فى ربع المعاملات والنكاح والجراح . . ومست الحاجة إلى سلطان يسوسهم ويحملهم على الحدود الفاصلة للاختصاصات . . فالفقيه هو العالم بقانون السياسة . . وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات . . فالفقيه هو معلم السلطان ومرشده إلى طريق سياسة الخلق . . لينتظم باستقامتهم أمورهم فى الدنيا، ووجه تعلقه بالدين أن الدنيا منزل من منازل الآخرة . . بل هى مزرعة الآخرة . . ولا يهم الدين إلا بالدنيا . . ولذلك قيل الدين . . والملك توأمان الدين أصل والسلطان حارس . . وما لا أصل له فمهدوم . . وما لا حارس له فضائع » . .

والغزالى يرى أن المسلم لا بد أن يتوافر له الصحة والمسكن المناسب . . والحياة الاجتماعية السليمة حتى يتمكن من الحصول على

العلم . . وحتى يتمكن من العمل . . ولا بد للمجتمع أن يكفل للمؤمن حاجته الشخصية والاجتماعية . . ومن هنا يتم التفاعل والتكامل بين الفرد والمجتمع . . أو بين المواطن والدولة . . ولكى تحقق الدولة للفرد الأمن والأمان لا بد أن تكون عندها الهيمنة على الأفراد . . لأن اللّه يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن . .

وبالطبع . . فالغزالى عندما يتحدث عن قوة السلطان وضرورة سيطرته على الأفراد . . إنما قال ذلك حتى يستتب الأمن فى ظل المجتمع ولا تحدث الفتنة ما تحدثه من تفريق الكلمة . . وبث الذعر والفوضى بين الناس . . فلا بد أن يتحقق الأمن والأمان للناس من خلال حكم السلطان . . وهذه مهمة السياسة . .

ولهذا قيل الدين والسلطان توأمان . .

ولهذا قيل الدين أس . . والسلطان حارس . . وما لا أس له فمهدوم . . وما لا حارس له فضائع . . وعلى الجملة يتساوى العاقل فى أن الخلق على اختلاف طبقاتهم . . وما هم عليه من تشتيت الأهواء . . وتباين الآراء . . ولم يكن لهم رأى مطاع يجمع شتاتهم هلكوا عن آخرهم . . وهذا داء لا علاج له إلا بسلطان قاهر يجمع شتات الآراء . . فبان أن السطان ضرورى فى نظام الدنيا . . ونظام الدنيا ضرورى فى نظام الدين . . ونظام الدين ضرورى فى الفوز بسعادة الآخرة . . وهو مقصود الأنبياء قطعًا . . فكان وجوب الإمام من ضروريات الشرع الذى لا سبيل إلى تركه . . فاعلم ذلك من كتابه «الاقتصاد فى الاعتقاد» . .

إذن . . فالغزالى يرى ضرورة وجود الحاكم القوى القاهر لا لأنه يريد حاكمًا ظالمًا مستبدًا . . ولكن الحاكم العادل الذى يتخذ من القوة وسيلة الأمن والأمان بين الناس . . وأن يكون حاكمًا عادلاً عاملاً بكتاب اللَّه . . لأن اللَّه سيجزيه خيرًا إذا حكم بالعدل . . وسينال جزاء من العقاب إذا حاد عن طريق العدل . . وهو يعتمد فى ذلك على حديث النبى ﷺ الذى يقول فيه :

« عدل السلطان يومًا واحدًا أفضل من عبادة سبعين عامًا » . .

ويعود الغزالى إلى الصفات التى يجب أن يتسم بها الحاكم . . وهى العدل والبعد عن الطمع . . والترفق بالناس . . وأن يقضى حاجات المحتاجين . . وألا يتسلط على أحد بسلطانه . . وأن لا يحيد عن شرع اللَّه . . وأن يجتهد . . ولا معصية للخالق من أجل مخلوق . .

وقد شرح الغزالى شروط الإمامة وهى :

البلوغ - العقل - الحرية - الذكورية - ونسب قريش - وسلامة حاستى السمع والبصر . .

كما أنه يجب أن تتوافر فيه أربع صفات مكتسبة وهى :

النجدة - والكفاية - والعلم - والورع . .

وقد كان واضحًا أن الغزالى كان يدافع عن الخليفة العباسى . . لأنه كان يريد أن يعم الأمن واستقرار الأوضاع فى البلاد . . وخاصة

أنه فى عصر الغزالى كانت الفتن تطل برءوسها من ناحية . . كما أن بوادر الأطماع الأجنبية كانت قد بدأت فى الظهور . . فقد ظهر الصليبيون وأطماعهم فى استعمار فلسطين . . وهذا ما حدث بالفعل فى فترة تصوف الغزالى . . عندما وصل الصليبيون فلسطين . . واستولوا على بعض المدن فى سواحلها . . وهذا الدور الصليبى . . قد تزايد فيما بعد . . حتى تمكن العرب من التخلص منهم نهائيًا فى عهد صلاح الدين الأيوبى . .

ومهما يكن من شىء . . فواضح أن الغزالى لم يهرب من الإدلاء برأيه فى الأمور السياسية . . فقد كتب كثيرًا عن السياسة . . وعن واجب أن يكون السلطان وسيلة لنشر العدالة بين الناس . . وأن يحكم بكتاب اللَّه وسنة رسوله . . ولا يحيد عن ذلك مهما كانت الأمور . .

ولقد عاب البعض على الغزالى أنه لم يقل رأيه فى الحملات الصليبية التى غزت فلسطين . . واستنتج بعضهم أنه كان مشتغلاً بالتصوف . . وابتعد عن السياسة وخاصة بعد قتل نظام الملك الذى حزن عليه حزنًا شديدًا . . وأغلب الظن أن الغزالى ربما كان أعلن رأيه ولم يسجل . . لأنه كان فى مرحلة الزهد والانقطاع عن الدنيا أو أنه عبر عن رأيه . . ولم يصل إلينا . . ولكن من خلال دراسة هذه الشخصية ودورها الفكرى الخطير . . يمكن أن نقول إن الغزالى كان ساخطًا عليهم . . لأنهم كانوا يشكلون خطرًا جسيمًا على الإسلام . .

وليس من المعقول .. ولا من المنطقى أن يرضى حجة الإسلام .. عن جيوش جاءت لتقضى على الإسلام .. المنطق يقول ذلك .. وتاريخ الرجل ومواقفه تقول ذلك .. فهو لم يخش أحدًا عندما تحدث عن مهمة الحاكم ودوره فى الحفاظ على أمن المواطن .. وعلى رعاية الدين .. ومسئوليته عما يصيب رعاياه من ظلم من يوكلهم بالحكم على المسلمين .. كما دخل معارك حادة .. وخاض مساجلات رهيبة مع الفلاسفة وعلماء الكلام .. انطلاقًا من إيمانه العميق .. بأن دوره هو حماية الإسلام من كل من يحاول أن يوقع ضررًا بالعقيدة .. باسم الفلسفة .. أو تحت أى اسم آخر كان يراه الغزالى بعيدًا عن الإسلام .. وروح الإسلام..

فليس من المعقول إذن أنه آثر الصمت إزاء الحملات الصليبية المذكورة التى جاءت من أجل كنوز الشرق .. وسحر الشرق .. لا من أجل حماية الصليب كما كانوا يزعمون..

* * * * *